الفصاحة من الملكات اللغوية التي عرف بها العرب واشتهروا وعملوا على توريثها للأجيال اللاحقة عبر قواعد وتمارين معينة، ويشهد على ذلل أنهم حاربوا كل العوامل التي تهددها كاللحن الذي شاعر بعد عصور الإسلام الأولى بسبب التداخل اللغوي بين العربية وبين غيرها من اللغات خوفا من أن تفقد العربية خصوصيتها التي تدعمت بعد الإسلام.

ويمكن اعتبار عملية التدوين التي قلبت الحضارة العربية وكانت سببا في ترسيخها من أبرز طرق المحافظة على نقاء اللغة العربية، تثبيتا للغة الفصيحة وحفظا لها أمام خطر اللحن بعد اتساع جغرافيا العرب شرقا وغربا متبعين في ذلك إجراءات دقيقة منها: تجنب الأخذ من القبائل القريبة من العجم والاقتصار على القبائل العربية البدوية والحضرية التي يشهد لها بالفصاحة (قس تميم قريش هذيل طيء ...) بالإضافة إلى صحة عروبة المتحدث بها من خلال التأكد من نسبه إلى جانب عامل التداول والشيوع.

فكيف فهم العرب الفصاحة؟ وكيف تصوروا وقوعها؟

الفصاحة في المعنى اللغوي من المادة اللغوية (ف . ص . ح) وتعني الخلوص والنقاء، ومنه اللبن الفصيح وذلك إذا ذهب اللبأ ن اللبن، وكثرة مخضه وذهاب رغوته ويعني خلوصه من شوائبه. ورجل فصيح هو البيّن في اللسان والكلام الفصيح الكلام العربي.

وقد وردت فصاحة الرجل في وصفين: لسانه وكلامه. فالرجل ذو اللسان الفصيح هو اللوذعي كأنه يلذع بالنار من الذكاء وذلك يتأتى بطلاقة اللسان بعد خلوه من العيوب التي قد تمنعه من ذلك كالعقدة والعجمة واللثغة لذلك فسروا اللسان الفصيح بالطليق أو الطلق وقرنوا الفصاحة بالذلاقة والبيان.

وقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: "وأخي هارون هو أفصح مني لسانان فأرسله معي ردءا يصدقني إني أخاف أن يكذبون"

سورة القصص الآية 34.

كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "أنا أفصح العرب بيد أني من قريش"

وقال حميد بن نور الهلالي:

عجبت لها أنى يكون غناؤها فصيحا ولم تفغر بمنطقها فما

وقال ابن المعتز:

قاصدات كل شرق وغرب ناطقات بالصهيل فصاحا

وقال المتنبي:

كأن المعاني في فصاحة لفظها نجوم الثريا في خلائقك الزهر

وجاء في المثل: "أفصح من العظين" وهما دغفل بن حنظلة الشيباني وزيد بن الكيس النمري وهما ممن شهد لهما بالفصاحة والعلم والحفظ.

ويشهد الدارسون قديما وحديثا بأسبقية قريش في الفصاحة كما ورد وصفهم بالفصاحة في القرآن الكريم فقد جاء في فيهم قوله تعالى: "فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد" سورة الأحزاب الآية 19. وقوله: "وإن يقولوا تسمع لقولهم" سورة المنفقون الآية 4.

وقال ابن فارس: "اجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء ببلغائهم وأيامهم ومجالسهم غن قريشا أفصح العرب ألسنة وأصفاها لغة"

وقد ساهم في ذلك عدة عوامل هي العامل السياسي والديني والاقتصادي لمكانة قريش قبل الإسلام وبعده.